أ. الشيخ محمد علي التسخيري
الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

دراسات ومقالات

القرآن الكريم كما تصوره روايات اصول الكافي

تتكون الشخصية الانسانية من منظومة عقدية وتركيبة نفسية عاطفية تؤدي عند تصاعدها الى تكوين ارادة وعزم يحرك السلوك الواعي المحقق للهدف.

ويعمل الاسلام بمقتضى واقعيته وفطريته على الاهتمام بكل هذه الأبعاد ليضمن انسجام الانسان مع المسيرة التي تحقق له اهداف خلقته كما ارادها الله سبحانه لها.

وهذا هو ما نشهده في النصوص القرآنية الكريمة والسنة النبوية الشريفة.

يقول الامام(ع) : «العقول أئمة الافكار والافكار أئمة القلوب والقلوب أئمة الحواس والحواس أئمة الاعضاء»[١]

ولما كانت الروايات الواردة عن اهل البيت(ع) انما تعبر عن القرآن والسنة النبوية اروع تعبير كما يبدو من استعراضها اولاً ومن تأكيدهم بكل وضوح في احاديثهم الثابتة عن ذلك[٢] ثانياً، فاننا نجدهم عليهم السلام يركزون على تلك الأبعاد وصياغتها الصياغة المطلوبة . وقد اخترنا ان نركز في مقالنا على كتاب (الكافي) باعتباره من اقدم المصادر الحديثية اذ يعود تأليفه الى القرن الرابع الهجري، ومن اهمها لدى الامامية لما يشتمل عليه من روايات كثيرة هي محط اهتمامهم واعتمادهم.

ورغم أنا لانؤمن بصحة كل ما رواه المرحوم الكليني (قدس سره) فاننا

سنفترض هنا الاعتماد على هذه الروايات لأنه (قدس سره) صرح في مقدمته بانه نقلها عمن يثق بعلمه استجابة للسائل ، وان كان ذكر بعضها في النوادر، واكد على لزوم الأخذ بالمجمع عليه دون الشاذ النادر، كما جاء في الرواية. وسنشير في الخاتمة الى هذا الامر. ونحن بصدد الوصول الى الصورة التي تتكون من اتباع هذه الروايات عن القرآن الكريم في خلد المسلم العامل به. ولعل اهم ما في اصول الكافي مشيراً الى هذه الصورة جاء في بابين هما:

١- باب الدعاء: وبالخصوص الدعاء عند قراءة القرآن، وحفظه.[٣]

٢- باب فضل القرآن.[٤]

فهما اذن محط اشارتنا.

وسنسير هنا وفق ثلاثة خطوط كما يلي:-

اولاً: القرآن الكريم والعقيدة والمفاهيم المنبثقة عنها

وهنا تركز الروايات اروع صورة عقدية خالصة عن اصول العقيدة واهمها التوحيد ، وما يتبعه من تصور للصفات الالهية، فتؤكد أن الامام الصادق(ع) كان يدعو عند قراءة كتاب الله عز وجل قائلاً:

«اللهم ربنا لك الحمد، انت المتوحد بالقدرة والسلطان المتين، ولك الحمد، انت المتعالي بالعز والكبرياء، وفوق السماوات والعرش العظيم، ربنا ولك الحمد انت المكتفي بعلمك، والمحتاج اليك كل ذي علم، ربنا ولك الحمد يا منزل الآيات والذكر العظيم، ربنا فلك الحمد بما علمتنا من الحكمة والقرآن العظيم المبين، اللهم انت علمتناه قبل رغبتنا في تعليمه، واختصصتنا به قبل رغبتنا بنفعه، اللهم فاذا كان ذلك منّاً منك وفضلاً وجوداً ولطفا بنا ورحمة لنا وامتناناً علينا من غير حولنا ولاحيلتنا ولاقوتنا، اللهم فحبب الينا حسن تلاوته وحفظ آياته وايماناً بمتشابهه وعملاً بمحكمه، وسببا في تأويله، وهدى في تدبيره وبصيرة بنوره، اللهم وكما انزلته شفاء لاوليائك، وشقاءً على اعدائك، وعمىً على اهل معصيتك، ونوراً لأهل طاعتك اللهم فاجعله لنا حصناً من عذابك، وحرزاً من غضبك، وحاجزاً عن معصيتك، وعصمة من سخطك، ودليلاً على طاعتك، ونوراً يوم نلقاك نستضيء به في خلقك، ونجوز به على صراطك، ونهتدي به الى جنتك»[٥].

وواضح التركيز العقائدي على:

التوحيد بمعانيه، والصفات الالهية الحسنى، من الحياة والقدرة والعلم والغنى والحكمة واللطف والرحمة وغيرها، والتركيز على الايمان بالرسالة عبر انزال القرآن، وعبر التمسك به واستمداد الهدى منه واللجوء إليه استعداداً للآخرة والجواز على الصراط والتنعم بالجنة.

ومن هذا المنطلق العقائدي الرصين تتدفق المعاني والتوجيهات الكثيرة ومنها:

أ — ان القرآن يفتح آفاق العلم والمعرفة ، حيث تأتي الاستعاذة من الشقاء في حمله والعمى عن علمه والجور عن حكمه والعلو عن قصده، والتقصير دون حقه[٦] ويستمر الدعاء على هذا النحو: (اللهم اجعل لقلوبنا ذكاء عند عجائبه التي لاتنقضي، ولذاذة عند ترديده وعبرة عبر ترجيعه ونفعاً بيناً عند استفهامه... اللهم اجعله لنا زاداً تقوينا به في الموقف بين يديك، وطريقاً واضحاً نسلك به اليك، وعلماً نافعاً نشكر به نعماءك.[٧]

وتقول الرواية في موضع آخر «فاذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع، وماحل مصدق، ومن جعله امامه قاده الى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه الى النار، وهو الدليل يدل الانسان على خير سبيل وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره انيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم لاتحصى عجائبه، ولاتبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة ، فليجل جال بصره، وليبلغ الصفة نظره، ينج من عطب ، ويتخلص من نشب، فان التفكر حياة البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلص وقلة التربص».[٨]

ويقول الامام علي بن الحسين(ع): آيات القرآن خزائن فكلما فتحت خزانة ينبغي لك ان تنظر فيها.[٩]

ب — القرآن هو الحجة المنجزة والمعذرة ومعيار الحق.

والروايات كلها تشع بهذا الامر ومنها قوله: «فانك اتخذت به علينا حجة قطعت به عذرنا، واصطنعت به عندنا نعمة قصر عنها شكرنا ، اللهم اجعله لنا شافعاً يوم اللقاء، وسلاحاً يوم الارتقاء، وحجيجاً يوم القضاء»[١٠]

٤٩٦٨

ج – وهو الصورة الاسمى للانسان الكامل حيث تذكر الروايات ان القرآن سيتمثل بشكل مجسد يوم القيامة فيظنه المسلمون والشهداء والنبيون والملائكة انه رجل منهم.[١١]

د – وهو معيار دقيق للفهم التاريخي السليم.[١٢] فمن خلال ما يشير اليه من سنن يمكن اكتشاف الحقائق التاريخية.

هـ – القرآن جامع لتعاليم الانبياء ومهيمن على الكتب السابقة.[١٣]

الى ما هنالك من تصورات تؤكدها النصوص.

ثانياً: القرآن الكريم وتربية المشاعر

والنصوص في هذا المورد حافلة بالمعاني متنوعة الاساليب الى حد معجز، تعمق القرآن في المشاعر، وتربط التأثرات بالمعاني اروع ربط وتؤكد على قراءته وحفظه والتفاعل مع معانيه. فلنتابع بعض هذه النصوص بكل تأمل ووعي:

في دعاء الامام الصادق(ع) عند قراءة القرآن نلاحظ هذا المقطع:

«اللهم ارزقنا حلاوةً في تلاوته، ونشاطاً في قيامه ووجلاً في ترتيله، وقوةً في استعماله في آناء الليل من رقاد الراقدين، ونبهنا عند الأحايين التي يستجاب فيها الدعاء من سنة الوسنانين»[١٤]

وبعد انواع عظيمة من القسم باسماء الله يسأل الداعي ربه قائلاً: «اسألك ان تصلي على محمد وآل محمد وان ترزقني حفظ القرآن واصناف العلم، وأن تثبتها في قلبي وسمعي وبصري، وان تخالط بها لحمي ودمي وعظامي ومخي، وتستعمل بها ليلي ونهاري برحمتك وقدرتك»[١٥]

وفي دعاء آخر «والزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني، وارزقني ان اتلوه على النحو الذي يرضيك عني، اللهم نور بكتابك بصري، واشرح به صدري، وفرح به قلبي، واطلق به لساني، واستعمل به بدني».[١٦]

وفي الرواية قال رسول الله: تعلموا القرآن فانه يأتي يوم القيامة صاحبه في صورة شاب جميل شاحب اللون فيقول له القرآن: انا الذي كنت قد اسهرت ليلك وأظمأت هو اجرك واجففت ريقك واسلت دمعتك ، أؤول معك حيثما ألت».[١٧]

ويقول الامام الصادق(ع): من قرأ القرآن وهو شاب مؤمن اختلط القرآن بلحمه ودمه وجعله الله عز وجل مع السفرة الكرام البررة.[١٨]

ويقول(ع) ومن اوتي القرآن فظن ان احداً من الناس اوتي افضل ما أوتي فقد عظّم ما حقّر الله وحقّر ما عظّم الله.[١٩]

وقارىء القرآن في تطور مستمر فهو حال مرتحل.[٢٠]

وحملة القرآن عرفاء اهل الجنة.[٢١]

ويأتي التأكيد على ختم القرآن وتنوير البيوت بالقرآن[٢٢] والحث على قراءته في كل حال[٢٣]، وختم القرآن في مكة خلال اسبوع[٢٤] وترتيل القرآن بصوت حسن[٢٥] ويقول الامام الصادق(ع):

«ان القرآن لايقرأ هذرمة ولكن يرتل ترتيلاً فاذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها وسل الله عز وجل الجنة واذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوذ بالله من النار.[٢٦]

ثم يأتي ذكر فضل قراءة السور[٢٧]

ثالثاً: القرآن والسلوك

وبطبيعة الحال يأتي تأطير كل السلوك باطار القرآن فيجعل معياراً عاماً له وضابطاً لكل حركة:

فيقول الامام في الدعاء: «اللهم اجعلنا نتبع حلاله ونجتنب حرامه ونقيم حدوده ونؤدي فرائضه».[٢٨] وفي مقطع آخر «اللهم اجعله لنا ولياً يثبتنا من الزلل ودليلاً يهدينا لصالح العمل، وعوناً هادياً يقومنا من الميل حتى يبلغ بنا افضل الامل.[٢٩]

ويقول الصادق(ع): «وهو الدليل يدل على خير سبيل»[٣٠]

وخلاصة الأمر:

ان روايات الكافي تربي الانسان القرآني الكامل، تصوغ له عقيدته ومفاهيمه القرآنية، وتزكيه وتربيه على التخلق باخلاقه والتفاعل معه، كما انه تعطيه الاطار القرآني للسلوك، فالقرآن حينئذ كل شيء في حياته: يسمع به ويبصر به وينطق به.

ومع كل ما سبق نجد ان المرحوم الكليني (قدس سره) يعطي القرآن في كتابه اعظم المقام ويجله اكبر الاجلال ويدفع الاجيال وخصوصاً اتباع مدرسة اهل البيت لبناء انفسهم وفقه وتصحيح كل تصورا تهم بمعياره والتفاعل معه كل التفاعل.

ومع هذا لايبقى مجال للاستماع الى تهمة موجهة اليه (قدس سره) من أنه شكك في حجيته، او آمن بتحريفه، وبالتالي خرج على الاجماع الاسلامي بسلامته من التحريف وانه ذكر الهي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه وان الله تعالى هو الذي نزله وهو الذي تكفل بحفظه. فان كل هذه النسب لايبقى لها مجال.

ولكن لنتعرض اليها عرضاً ونقول الحق دفاعاً عن هذا العالم النحرير والمحدث الجليل.

الشيخ الكليني والتحريف

تعد نسبة القول بالتحريف لشيخنا الكليني من اخطر التهم الموجهة اليه. وهذا الخطأ ارتكبه المرحوم الفيض الكاشاني حيث قال: «فالظاهر من ثقة الاسلام محمد بن يعقوب الكليني طاب ثراه أنه كان يعتقد التحريف والنقصان في القرآن»[٣١] الأمر الذي ادى الى نتيجة اكثر خطراً وهي (التكفير) حيث استند الشيخ محمد ابو زهره الى هذه النسبة وأقدم على تكفيره قائلاً: «ومن الغريب ان الذي ادعى هذه الدعاوى الكليني وهو حجة في الرواية عندهم، وكيف تقبل رواية من يكون على هذا الضلال، بل على هذا الكفر المبين»[٣٢]

والحقيقة هي ان المرحوم الكليني لم يصرح بذلك ابداً ، ونقله لبعض الروايات في باب (انه لم يجمع القرآن كله الا الأئمة)[٣٣] لايعني الايمان بالتحريف، ورواياته انما تركز على الاختلاف في كيفية ترتيب النزول، وجمع القرآن، وعلم القرآن وتفسيره وهي بعيدة عن التحريف.

وكذلك باب (النوادر في فضل القرآن)[٣٤] ورواياته بين مؤكدة على حفظ الحروف وتضييع المعاني، وبين التركيز على ان علمهم(ع) بتفسير القرآن وعلومه اكثر من غيرهم.

وكل هذا لايعني الالتزام بالتحريف . ثم انه موسوعي ينقل الروايات التي يعتمد على اسنادها ولايعني ذلك الايمان بكل مضامينها خصوصاً وانه نقلها في باب

(النوادر) مما يجعلها مشمولة لمنهجه الواضح في رفض الشاذ النادر عملاً برواية (ودع الشاذ النادر)[٣٥]. والاهم من ذلك انها لاتدل على التحريف وانما على اختلاف في تحديد الآيات، او على التحريف المعنوي كما دلت عليه رواية اخرى نقلها المرحوم اذ تقول: «وكان من نبذهم الكتاب انهم اقاموا حروفه وحرفوا حدوده».[٣٦] او على الاختلاف في ترتيب الآيات وما الى ذلك.

اما (التكفير) فهو امر تسرع فيه الشيخ ابو زهرة، فظلم المرحوم الكليني بذلك. وناقش الامر المرحوم استاذنا السيد محمد تقي الحكيم فقال : «فرواية هذه الاحاديث في الشواذ النوادر من كتابه، وتعارضها مع مروياته، ولزوم طرحها بالنسبة الى منهجه الذي رسمه، وعدم التلازم بين الايمان بالصدور - لو آمن بصدورها - وبين الايمان بمضمونها، كل ذلك مما يوجب القطع بطرحه لهذه الاخبار، وايمانه بعدم التحريف. على ان التحريف لو كان مذهباً له لما صح دعوى الشيخ كاشف الغطاء وغيره اجماع الامامية على عدم التحريف ومثل الكليني ممن لايتجاهل امره عادة).[٣٧]

ولكني اعود فاؤكد انه لاتوجد رواية في الكافي يستفاد منها التحريف بصراحة. وما توهم منه ذلك ذكره في النوادر. فهو اذن برىء من هذه التهمة، عامل على نشر القرآن وصياغة الانسان صياغة قرآنية فريدة.

الهوامش:

١ - بحار الانوار ج ١ ص ٩٦.

٢ - وسائل الشيعة ج١٨ ص ٥٨ والكافي ج ١ ص ٥٣.

٣ - اصول الكافي، طبعة الآخوندي ج٢ ص ٥٧٣، ٥٧٦.

٤ - ن. م ص ٥٩٦.

٥ - ن.م ص ٥٧٤.

٦ - ن م ص ٥٩٩.

٧ - ن. م ص ٥٩٩.

٨ - ن. م ص ٥٩٩.

٩ - ن.م ص ٦٠٩.

٤٩٧٢

١٠ - ن. م ص ٥٧٥.

١١ - ن.م ٥٩٦ و ٦٠١ و ٦٠٢.

١٢ - ن. م ص ٥٩٩.

١٣ - ص ٦٠١ ح ١٠.

١٤ - ن. م ص ٥٧٤.

١٥ - ن. م ص ٥٧٦.

١٦ - ن. م ص ٥٧٧.

١٧ - ن. م ص ٦٠٣.

١٨ - ن. م ص ٦٠٣.

١٩ - ن. م ص ٦٠٤.

٢٠ - ن. م ص ٦٠٥.

٢١ - ن. م ص ٦٠٦.

٢٢ - ن. م ص ٦١٠.

٢٣ - ن. م ص ٦١١.

٢٤ - ن. م ص ٦١٢.

٢٥ - ن. م ص ٦١٤.

٢٦ - ن. م ص ٦١٧.

٢٧ - ن. م ص ٦١٩ فما بعدها.

٢٨ - ن. م ص ٥٧٤.

٢٩ - ن. م .

٣٠ - ن. م ص ٥٩٩.

٣١ - تفسير الصافي ج ص ٤٧.

٣٢ - الامام زيد ص ٣٥١.

٣٣ - اصول الكافي ج١ ص ٢٢٨.

٣٤ - اصول الكافي ج ٢ ص ٦٢٧.

٣٥ - بحار الانوار ج ٢ ص ٢٤٥.

٣٦ - الكافي هامش مرآة العقول ج١ ص ٦.

٣٧ - الاصول المقارن ص ١١١.

٤٩٧٤